

## ادعاءات السيادة الإسرائيلية على بيت المقدس

### بين الوهم والواقع

#### د. حسن عبد الرحمن السلوادي

أقامت إسرائيل عام ١٩٩٥ م احتفالات ضخمة بمناسبة ما أسمته "مرور ثلاثة آلاف عام على إعلان داود القدس عاصمة لبني إسرائيل". وقد اشتملت الاحتفالات على ندوات ومحاضرات ومسيرات نظمها اليمين المتطرف في شوارع البلدة القديمة، وبمحاذاة أسوارها. وكان الهدف من وراء تنظيمها تكريس الهيمنة الإسرائيلية على المدينة، وإبراز الخلفية الدينية والتاريخية التي تستند إليها الصهيونية في دعم أطروحتها للاستئثار بملكيتها، والسيطرة عليها دون الآخرين، على أساس كونها العاصمة التاريخية للدولة العبرية، ورمز المعجزات الصهيونية، ومركز الديانة اليهودية منذ آلاف السنين<sup>١</sup>.

وتعد الفترة التي حكم بها داود وسليمان، بالرغم من قصرها محور الادعاءات الصهيونية حول أحقية اليهود بملكية المدينة، ففي هذه الفترة نجح داود في احتلالها وانتزاعها من أيدي أصحابها اليبوسيين. ويبدو أن الدافع لاحتلالها لم يكن دينياً منذ البداية، ولم يكن الأمر يتعلق بقداستها أو أهميتها الدينية، بل كان لاعتبارات إستراتيجية تتعلق بموقعها الحصين في بقعة متوسطة بين الشمال والجنوب، وكونها نقطة التقاء ومحور تفرع لطرق المواصلات، مما جعلها في نظر داود منطقة مثالية تصلح أن تكون عاصمة لأسباط بني إسرائيل<sup>٢</sup>.

ومن هنا أصبحت القدس في نظر مدّوني التوراة وغيرهم من الكتاب ورجال السياسة تعبيراً عن الوحدة.

ورمزاً تطالع من خلاله تاريخ اليهود ووجودهم في هذه المنطقة<sup>٣</sup>. وهو تاريخ تمتاز فيه الأساطير بالأخيلة، وتعرض فيه الأحداث على صغرها في إطار من المبالغة والتهويل، الأمر الذي يجعل من قبول هذه المقولات والأخبار المتناقضة التي تزدهم بها التوراة أمراً غير غريب أو مستهجن.

ويعد الهيكل من أكثر الرموز اليهودية إثارة للجدل، لأن التصورات حوله لم تتأسس على مشاهدة عيانية، أو واقع مادي ملموس، وإنما على وقائع توراتية، يعتورها قدر كبير من المبالغة والتناقض في الرواية والأحداث التي يتعذر - على حدّ قول موريس بوكاي - التوفيق بينها، أو أخذها على غلاتها، غالبيتها أكملت أو صححت في فترات تاريخية متباينة، ونتيجة لأحداث وظروف خاصة عاشها مدّونو أسفار التوراة، ومعاصرو أحداثها<sup>٤</sup>.

وقد أكد الدكتور نجيب ميخائيل هذه الحقيقة حين قال: "إن كثيراً من روايات العهد القديم قد انتقلت مشافهة، فتعرضت بعد جيل أو أكثر لما تتعرض له الأقوال المنقولة. ومن هنا كان

<sup>١</sup> البحيري، د. صلاح الدين وآخرون، يوم القدس (عمان: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٢).

<sup>٢</sup> لوكاي، مرس.

<sup>٣</sup> جريس، سمير، القدس: المخططات الصهيونية الاحتلال والتهويد (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١).

<sup>٤</sup> حسين، د. محمد أحمد محمود، المسجد الأقصى في الكتب السماوية (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٨٧).

التناقض المخل والتركيز المستمر على بعض النقاط التي يثير التركيز عليها الشك فيها أكثر مما يؤكد حقيقتها<sup>٥</sup>.

وأورد ميخائيل مثلاً على ذلك حادثة شراء الملك داود لبيدر (أرونة اليبوسي). على مر العصور يتغامزون على ترديد هذه المقولة زاعمين أن لهم حقوق تملك مكتسبة في أرض الحرم القدسي، وقد صرح بذلك أبراهام روزنباخ حاخام رومانيا الأكبر، حيث قال في رسالة له إلى مفتي فلسطين عام ١٩٣٠ م: "أنني أطلب باسم الحيّ الأزلي أن تحملوا العرب على أن يبيعوا هذا المكان للكهنة من أبناء هارون ليقيموا فيه شعائرهم الدينية، فيستطيع العالم بأسره أن يسمع بالمذيع البركات الدينية التي يطلبها الكهنة من الله في ذلك المكان المقدس، وبذلك تحفظ حقوق التملك المكتسبة بمرور الزمن للملك داود"<sup>٦</sup>.

والملاحظ في العبارات السابقة أن صاحبها يحاول أن يثبت دعواه بالإحالة إلى نصوص العهد القديم، والاحتجاج بالجانب القانوني وهو ما أسماه "حق التملك"، وهو احتجاج واه ليس له سند أو دليل، لأن الحادثة المشار إليها - إن صحت - قد مضى عليها عشرات القرون، لم يكن لليهود فيها أي تواجد في فلسطين، كما أن النصوص التوراتية التي تشير إليها تتناقض تناقضاً صارخاً في ذكر واقعة شراء البيدر، فبينما يذكر نص في سفر صموئيل بأن الملك داود دفع (لأرونة) اليبوسي خمسين شاقلاً من الفضة، أي ما يعادل في وقتنا الحاضر ٩٣ دولاراً، فإن نصاً آخر في سفر الأخبار يؤكد أن ثمن البيدر ٦٠٠ شاقلاً من الذهب دفعها الملك داود لأرنان اليبوسي، أي ما يوازي ٥٥٧٥٣ دولاراً تقريباً<sup>٧</sup>.

ويستغرب أحد الباحثين من إصرار كتاب العهد القديم على إثبات واقعة الشراء والتأكيد عليها بصيغ متناقضة مع أن التوراة تعد بني إسرائيل، بل تأمرهم باحتلال أرض (كنعان) غنيمة، وعدم الاكتفاء بذلك، بل بإبادة جميع سكانها الأصليين، فقد جاء في سفر التثنية: "وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبق منها نسمة ما حية، بل تحرمها تحريماً - [تبدها إبادة] - الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحوريين واليبوسيين، كما أمرك الرب إلهك"<sup>٨</sup>.

ومن هنا يصعب على العقل - على حد قول هذا الباحث - التسليم بواقعة الشراء، أو الموافقة عليها، فإذا كان الرب إله إسرائيل قد منحهم أرض كنعان واليبوسيين وغيرهم من الشعوب القاطنين في المنطقة غنيمة، بل أمر بإهلاكهم وإبادتهم ومن ضمنهم (أرونة) اليبوسي صاحب البيدر، فلم الإصرار على واقعة الشراء والإلحاح عليها؟! مع أن أرونة نفسه حسب نصوص التوراة عرض ببدره مجاناً على الملك داود عقب احتلاله ييوس، لكنه رفض هذا العرض، وأصر على شراء البيدر بما فيه ليقم عليه مذبحاً للرب<sup>٩</sup>.

والى جانب هذا التناقض الصارخ في رواية استملاك البيدر، فإن ثمة تناقضاً ومبالغة في بناء الهيكل نفسه الذي جعله مدونو الأسفار أسطورة، وأحاطوه بدعاية هائلة من التمجيد والعظمة، فقد جاء في أخبار الأيام الثاني: "وعد سليمان جميع الرجال الأجنيبين الذين في أرض إسرائيل بعد العد الذي عددهم إياه داود أبوه. فوجدهم مائة وثلاثة وخمسين ألفاً وستمئة، فجعل

<sup>٥</sup> . الحسنى، د. إسحاق موسى، عروبة بيت المقدس (بيروت: مركز الأبحاث / منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٩).

<sup>٦</sup> . خوري، د. جريس وآخرون، القدس: دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية (القدس: مركز اللقاء ١٩٩٦).

<sup>٧</sup> . دروزه، محمد عزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم (القاهرة: الدار القومية، د. ت).

<sup>٨</sup> . دياب، د. محمود، الصهيونية العالمية والرد على الفكر الصهيوني المعاصر (القاهرة: مطبعة الشعب ١٩٧٦).

<sup>٩</sup> . سنقرط، داود عبد العفو، جذور الفكر اليهودي (عمان: دار الفرقان، ١٩٨٤).

منهم سبعين ألف حمّال وثمانين ألف قطاع على الجبل وثلاثة آلاف وستمئة وكلاء لتشغيل الشعب<sup>١٠</sup>.

أما في سفر الملوك فكان عددهم مائة وثلاثة آلاف وثمانين وثلاثمائة على النحو التالي: ٣٠ ألف عامل لقطع الأخشاب من جبل لبنان، ٧٠ ألف حمّال، ٨٠ ألف قطاع على الجبل، ٣٣٠٠ مشرف على العمال<sup>١١</sup>.

وهكذا يربو عدد العمال الذين شاركوا في بناء الهيكل على (١٨٠٠٠٠). وهذا العدد الضخم سبق لبناء مبنى عادي بسيط<sup>١٢</sup> لا يتعدى طوله حسب رواية التوراة ٣١,٥ متراً، وعرضه ١٠,٥ أمتار، وارتفاعه ١٥ متراً.

وقد سخر العديد من الكتاب والباحثين من تلك الدعاية الأسطورية التي نسجها اليهود حول الهيكل " وهو الأثر الوحيد الذي أقاموه في تاريخهم منذ خرجوا من مصر هاربين إلى أن استقروا في بابل سبايا ولاجئين<sup>١٣</sup>". فالكاتب اليهودي الأميركي لويس براون يقر بأن الهيكل حسب المواصفات التوراتية، لم يكن فخماً ولا ضخماً إلا في أعين اليهود البسطاء<sup>١٤</sup>، ويقول المؤرخ البريطاني ه.ج. ساخرأ: " إن هيكل سليمان إذا أمعنا النظر في مقاييسه، فإن بالإمكان إدخاله في كنيسة صغيرة لبلد صغير<sup>١٥</sup>".

ومن اللافت للنظر أن البساطة في التصميم التي تميز بها هيكل سليمان تشبه إلى حد بعيد بساطة المعابد الكنعانية التي شيّدت في أماكن متفرقة من أرض كنعان وفلسطين قبل مجيء القبائل اليهودية البدوية بفترة طويلة، بل يمكن القول أن الطابع المعماري العام لمعبد سليمان يكاد يماثل تصميم المعبد الكنعاني من وجوه عديدة لعل من أهمها أن كليهما كان يحتوي على غرفة عليا تقع في نهاية الغرفة الرئيسية للمعبد، وكانت هذه الغرفة في المعبد الكنعاني مخصصة لتمثال الآلهة، في حين مثلت في معبد سليمان (قدس الأقداس)<sup>١٦</sup>.

ويذهب العديد من المؤرخين وعلماء الآثار أن هيكل سليمان في حقيقته إبداع كنعاني، لأن مهندسيه وبنائه الأولين حسب ما ورد في العهد القديم هم من العرب الكنعانيين والفينيقيين، وزاد بعض أولئك أن العبادة نفسها خضعت لتأثيرات كنعانية شتى، فقد أقر الكاتب اليهودي حزقيال قوريفمان بهذه الحقيقة حيث قال: " أن بني إسرائيل اندمجوا بعد غزوهم لأرض كنعان تماماً مع أهل كنعان، حيث تشربوا من عاداتهم وطقوسهم الدينية<sup>١٧</sup>".

ويبدو لي أن الديانة الكنعانية قد تطورت شيئاً فشيئاً مثلما فعلت الديانة المصرية القديمة باتجاه توحيد الخالق جلّ وعلا، وهناك مؤشرات دالة على أن القدس الكنعانية كانت متجهة إلى العليّ القدير تحت حكم ملك ومرشد ديني من أبناء فلسطين الأصليين هو ملكي صادق، حيث يروي انه صلى مع سيدنا إبراهيم جماعة حين مرّ بمدينة شالم، وقد كان هذا قبل أن يخلق اليهود بزمان طويل، فليس من الغريب إذن أن يتأثر اليهود بعد قدومهم إلى فلسطين، وحتى في زمن الملك داود بالطقوس الدينية الكنعانية، وقد أثبت الباحثون في تاريخ الديانة اليهودية أن الموسيقيين والمغنيين الأوائل في الهيكل كانوا كنعانيين في أشخاصهم وتدريبهم، وعندما وضع داود موسيقى

<sup>١٠</sup> سنقرط، الشقيري، أحمد، خرافات يهودية (عمان: مطبعة الدستور، ١٩٨١).

<sup>١١</sup> ابن طلال، الحسن، القدس: دراسات قانونية (لوفجمان، لجنة النشرة، ١٩٧٩).

<sup>١٢</sup> طمسون، د. جون وآخرون، قاموس القدس (بيروت، ١٩٦٤).

<sup>١٣</sup> ظاظا، د. حسن، القدس، (الإسكندرية، مطبعة الإسكندرية، ١٩٧٠).

<sup>١٤</sup> العارف، عارف، تاريخ القدس (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥١).

<sup>١٥</sup> عامري، محمد أديب، القدس العربية (عمان: دار الطباعة والنشر، ١٩٧١).

<sup>١٦</sup> عز الدين، د. فاروق محمد، القدس تاريخاً وجغرافياً (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١).

<sup>١٧</sup> فرج، د. سيد، القدس عربية إسلامية (الرياض: دار المريخ، ١٤٠٥هـ).

الإشاد الديني التي تبعتها سليمان من بعده، لم يكن لديهما نموذج يحتذى به سوى النموذج الكنعاني بدليل أن طوائف الموسيقيين المتأخرين كانوا يفخرون بانتسابهم إلى أسر تحمل أسماء كنعانية<sup>١٨</sup>.

وأياً كان الأمر، فقد كانت الفكرة التي شيد الهيكل على أساسها منذ البداية هو الاحتفاظ (بتابوت عهد الرب)، وحفظه بعد ما كان منتقلاً في خيمة، على أن هذا التابوت اختفى إلى الأبد، ولم يعد له وجود بعد أن حلّ الخراب بهيكل سليمان، وعلى هذا فالبناء الذي أقامه اليهود بعد عودتهم من السبي ليست له قداسة الهيكل الأول أو بيت الرب، لأن قداسة الهيكل منوطة بوجود التابوت فيه، ففقدان التابوت مع زوال هيكله، إنما هو – كما قال أحد الباحثين المحدثين – "زوال للهيكل الحقيقي المقدس إلى الأبد"<sup>١٩</sup>.

ومن جهة ثانية، فقد كان من المفروض أن يكون الهيكل مكاناً طاهراً يؤمه المؤمنون لإقامة شعائرهم، ورفع صلواتهم وابتهاالاتهم إلى الحيّ الأزلي، ولكن كهنة الهيكل حادوا عن هذا السبيل، فارتكبوا المعاصي وسلكوا دروب الشر والفساد، وكذلك فعل أنبياؤهم كما هو منصوص عليه في العهد القديم، فقد جاء في سفر الملوك: "وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال الرب عنهم لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يملن قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السراري، فأملت نسائه قلبه، وحدث في زمان شيخوخة سليمان أن نسائه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، فلم يكن قلبه كاملاً مع الرب"<sup>٢٠</sup>.

وهكذا فإن سليمان كما صورّه العهد القديم قد سار وراء الأوثان، وكذلك فعل أخلافه، حيث فعلوا الشر في عين الرب، فبنوا المرتفعات لعبادة الأوثان، وقدموا لها القرابين، ولهذا توعدهم الرب وحذرهم قائلاً بنص التوراة: "ها أنذا جالب شراً على أورشليم"<sup>٢١</sup> وقال في موضع آخر: "وأمسح أورشليم كما يمسح واحد الصحن يمسه ويقلّبه، وأرفض بقية ميراثي، وأسلمهم ليد أعدائهم، فيكونون غنيمة ونهباً لجميع أعدائهم، لأنهم عملوا الشر في عيني، وصاروا يغيظوني من اليوم الذي فيه خرج أبائهم من مصر إلى هذا اليوم"<sup>٢٢</sup>.

وعلى الرغم من هذا التحذير، فقد ظل بنو إسرائيل سادرين في الغواية والضلال مبتعدين عن شريعة التوحيد التي ميزتهم عن سائر الأمم والشعوب التي عاصرتهم، وتحول الهيكل إلى مكان لعبادة الأوثان، وأضحت (أورشليم) ومرتفعاتها مرتعاً للفسق والانحراف، مما حدا بالسيد المسيح إلى مخاطبتها قائلاً: "يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريديا. هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً"<sup>٢٣</sup>.

وكذلك خاطب السيد المسيح معاصريه من اليهود بعدما شاهد بأمر عينه فجورهم وانغماسهم في الشرك حيث قال: "أنتم تشهدون على أنفسكم أنكم قتلتم الأنبياء آيتها الحيات وأولاد الأفاعي"<sup>٢٤</sup>، ووصف إنجيل متى ما آل إليه الهيكل في أيام عيسى عليه السلام فقال: "ودخل يسوع إلى هيكل

<sup>١٨</sup> . فودة، د. عز الدين، قضية القدس في محيط العلاقات الدولية (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٦٦).

<sup>١٩</sup> . تويغمان، حزقيال، تاريخ العقيدة اليهودية في العصور القديمة وحتى نهاية البيت الثاني (القدس: ١٩٥٣).

<sup>٢٠</sup> . كوهين، أمنون، القدس دراسات في تاريخ المدينة (القدس: باديتسحان بن تسفي، ١٩٩٠).

<sup>٢١</sup> . ماجواير، كيث، تهويد القدس (بيروت: دار الأمان، ١٩٨١).

<sup>٢٢</sup> . المقدس، شمس الدين أبو عبد الله بن احمد البشاري ١٥ حسن التقاسم في معرفة الأقاليم (لیدن، ١٩٠٦).

<sup>٢٣</sup> . متى، الاصحاح ٢٣: ٣٧ – ٣٨.

<sup>٢٤</sup> . متى، الاصحاح ٢٣: ٣٠ – ٣٢.

الله وأخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب مواقد الصيارفة وكراسي باعة الحمام وقال لهم مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة للصوص<sup>٢٥</sup>.

من أجل ذلك تنبأ السيد المسيح بدمار الهيكل، وزواله إلى الأبد، حيث قال لتلاميذه يوماً وهو يشير إلى أبنية الهيكل: "أما تنتظرون جميع هذه. الحق أقول لكم: إنه لا يترك هنا حجر على حجر لا ينقض<sup>٢٦</sup>".

وقد تحققت نبوءة السيد المسيح ونبوءة أنبياء بني إسرائيل قبله، فدمرت (أورشليم) التاريخية تدميراً تاماً غير مرة، دمرها نبوخذ نصر سنة ٥٨٧ ق. م وسبى اليهود إلى بابل ومنعهم من دخولها، ودمر هيكلها أنطوخوس ملك المكدونيين سنة ١٧٠ ق. م، ودمرها تيطوس الروماني سنة ٧٠م، وجعلها طعمة للنيران وقلبها ظهراً على عقب، وأباد الكثير من اليهود وأخلى من بقي منهم في القدس حتى تشتتوا في بقاع الأرض، ودمر هادريانوس ما بقي منها سنة ١٣٥ م، وتخلص ممن بقي فيها من اليهود بالقتل والتشريد، ومن ذلك الحين زالت المدينة من الوجود، ولم يبق لها أو لهيكلها أثر<sup>٢٧</sup>.

لعل أهم ما يستنبطه الباحث من خلال هذه الأحداث أن مدينة القدس لم تخضع للسيطرة اليهودية سوى فترة قصيرة بالمقارنة مع الفترات التي خضعت فيها لسيطرة أمم وشعوب أخرى، كالبابليين واليونانيين والفرس والرومان والبيزنطيين، فالفترة التي كانت فيها عاصمة موحدة لبني إسرائيل قبل انقسام مملكة سليمان لم تتجاوز السبعين عاماً. وقد دلت الوثائق التي اكتشفت حول تلك الفترة، وكذلك المصادر القديمة التي تناولت أحداثها، ومن بينها العهد القديم أن اليهود لم يستقروا سياسياً طوال فترة احتلالهم لفلسطين، كما أنهم لم يشكلوا في أية فترة من فترات التاريخ الكثرة الغالبة للسكان، بل كانوا خلال الفترات المحدودة التي تواجدوا فيها أقلية بين كثيرين من الشعوب العربية كاليبوسيين والمؤببيين والأدوميين والعمونيين والكنعانيين<sup>٢٨</sup>.

<sup>٢٥</sup> متى، الإصحاح ٢١: ١٢ - ١٣.

<sup>٢٦</sup> متى، الإصحاح ٢٣: ٣٧ - ٣٨.

<sup>٢٧</sup> لمزيد من التفاصيل راجع: الحسيني، د. إسحاق موسى، عروبة بيت المقدس (بيروت: مركز الأبحاث/ منظمة التحرير الفلسطينية،

١٩٦٩)، ص: ٢٥ وما بعدها، الشقيري، خرافات يهودية، مرجع سابق، ص: ٢٢٤، ظاظا د. حسن، القدس، ص: ٤٤، د. محمد

أحمد محمد حسين، المسجد الأقصى في الكتب المقدسة، ص: ٨٠، طمسون د. جون، وآخرون، قاموس الكتاب المقدس (بيروت

١٩٦٤م)، ص: ١١٤، العارف، عارف، تاريخ القدس (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥١)، ص: ١٨٥.

<sup>٢٨</sup> فرج، د. سيد، ص: ١١٧، أحمد الشقيري، خرافات يهودية، ص: ٤٣.